حين يتولد حقل نفط من الخيال

الإنتاج وتحديد هوية السينما الأمريكية

بقلم- حسن حداد

ننتخب السينما لأن تكون العامل المهم الذي يساهم في تشكيل وصياغة الوجدان الشعبي.. وأهمية هذا الدور ينبع دوماً من واقع المجتمع الثقافي والاجتماعي نفسه، بمعنى فقدان التأثير المهم للكلمة المكتوبة على الجماهير، التي تعاني من الأمية. لذلك تبقى الغلبة للإذاعة المسموعة (الراديو) والمرئية (السينما والتليفزيون).

والسينما ليست فكراً وفناً فحسب، ولكنها بالدرجة الأولى صناعة وتجارة.. فالسينما، منذ بدايتها، لم تأخذ على عاتقها مهمة القيام بتوعية الجماهير ورفع مستواها الفكري والثقافي.. ولم يأخذ هذا الهدف حيزاً من أجندة المنتجين. والسينما كانت ولا تزال لدى الغالبية منهم تجارة تدر عليهم الكثير من الأرباح.

إذن، فالإنتاج هو الحجر الأساسي الذي تقوم عليه صناعة السينما.. والمسيطر على عملية الإنتاج هو الذي يحدد هوية هذه السينما. لكن يجب أن نعترف في كل هذه المعطيات بأن عملية الإنتاج ليست عملية سهلة، بل هي محكومة بشبكة من العلاقات لا تقتصر . كما في الإنتاج الأدبي على ورق وقلم وتكاليف طباعة، تبقى نسبياً محدودة جداً. بل هي عملية تمر عبر آلات ومواد ومؤسسات ورساميل، هي التي تكوّن ما نقول عنه صناعة سينما.

مما لا شك فيه، بأن الذي يصنع السينما ليس الفنان كما يعتقد الغالبية؛ بل هو التاجر صاحب رأس المال القادر على توصيلها للمتفرج. وهذا بالضبط ما تيقن منه وآمن به رأس المال الأمريكي منذ البداية، عندما جعل من السينما، صناعة تدر الأرباح الخيالية، وتمليء الجيوب بمليارات الدولارات.

السينما الأمريكية

الحديث عن السينما الأمريكية.. يعني الحديث عن السينما في كامل تألقها. فالسينما الأمريكية، بكل ما تحمله من أفكار وتقنية وابتكارات، مهما اختلفنا حولها، هي من دون منازع، الأولى في العالم.. هذا بالرغم من أن كل سينمات العالم، حاولت مجاراتها في أكثر من مرحلة، إلا أن التفوق كان حليفاً للسينما الأميركية.

لماذا السينما الأمريكية؟ وما أسباب انتشارها في العالم؟ أسئلة تراود الكثيرين.. ويمكن أن يجيب عليها الغالبية، كل بوجهة نظره. ولكننا هنا، سنقوم سوياً، بمناقشة لبعض أهم العناصر الفنية والمحطات التي جعلت من هذه السينما (الأمريكية)، هي السائدة في العالم.

ولكي نكون أكثر دقة في طرح قضية هامة مثل هذه، علينا أولاً القيام برصد موجز وسريع يتناول نشوء السينما الأمريكية، كيف بدأت وتطورت واستمرت إلى هذا اليوم. ونحن بهذا لن نقدم تاريخاً شاملاً لهذه السينما، وإنما سنتحدث عن محطات هامة كونت ما يسمى بـ (السينما الأمريكية).

بالرغم من أن السينما قد بدأت في فرنسا وبريطانيا وألمانيا والنمسا وأمريكا، في نفس الفترة تقريباً (بين عامي

المخرج جرفس

ديفيد جريفيت

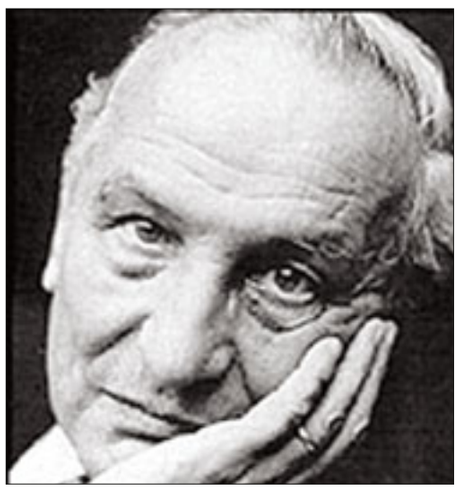
استيفنغ بيرغ

١٨٩٥ . ١٩٠٠). بل ربما جاءت السينما الأمريكية فيما بعد، إلا أن ذلك لم يمنع من أن تكون أمريكا هي السباقة في مجال فني وشعبي كالسينما. فقد اهتم الأمريكان كثيراً بصالات العرض السينمائي، معتقدين بشكل حازم أنها العنصر الأساسي لإزدهار هذا الجانب الترفيهي والثقافي المهم للناس.

ففي الوقت الذي كانت فيه فرنسا تملك مائتي إلى ثلاثمائة صالة عرض في عام ١٩٠٩، ولا يملك العالم بأسره سوى ألفين إلى ثلاثة آلاف صالة، كان عدد صالات العرض في أمريكا في نفس الفترة قد تجاوز عددها في العالم بأسره. ففي غضون ثلاث سنوات فقط، ارتفع عدد صالات العرض في أمريكا بشكل خرافي، من عشر صالات فقط إلى عشرة آلاف صالة.

هذا الارتفاع المذهل في عدد صالات العرض، جاء نتيجة لأسباب عديدة ومدروسة، أهمها ثمن تذكرة الدخول البسيط وهو خمسة سنتات (نيكل واحد فقط)، ولهذا سميت هذه الصالات بـ (منتديات النيكل). مما خلق رواد السينما في تلك الفترة، فكانوا في مجملهم من المهاجرين الذين بدأوا يتدافعون بشكل هائل إلى أمريكا، بمعدل مليون نسمة سنوياً، ونجاح ذلك أدى باتجاه بناء المزيد من صالات العرض.

إن انتشار صالات العرض بهذا الشكل، قد ساهم بشكل واضح في زيادة الإنتاج السينمائي، وذلك لتلبية حاجة المستهلك (المتفرج)، ودخول الرأسمال الأمريكي هذا المجال بدون أي توجس أو خوف. باعتبار أن إنتاج فيلم واحد بتكلفة مائتي دولار فقط، قادر على جني أرباح تساوي عشرة أضعاف هذا المبلغ.

هوليوود والحرب

جاءت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، لتكون لصالح السينما الأمريكية، تلك السنوات التي شهدت انحساراً واضحاً للسينما الأوروبية. فبينما كانت أوروبا مشغولة بالحرب وأعبائها، كانت أمريكا تصنع تاريخها السينمائي. حيث بدأت استوديوهات هوليوود في إنتاج الكثير من الأفلام التي حظيت بنجاحات متكررة، إن كان في أمريكا أو في بقية دول العالم. إلى أن قام الأمريكي ديفيد جريفيت، بتقديم فيلمه الرائد (مولد أمة).

إن فيلم (مولد أمة) الذي أخرجه جريفيت عام ١٩١٥، يعتبر بحق انطلاقة السينما الأمريكية التجارية الحقيقية، وتألق صناعتها، هذا الفيلم الذي أثار ضجة صاخبة، بسبب الاتجاه العنصري والعرقي الذي يتبناه موضوع الفيلم، فقد حدثت ردود فعل دموية لدى المتفرج راح ضحيتها الكثيرون، مما جعل إيراداته تتزايد يوماً بعد يوم. لدرجة أن هذا الفيلم الذي لم يتكلف إنتاجه سوى سبعمائة دولار، قد فاقت عائداته التصور، بعد أن شاهده ما يقارب المائة مليون نسمة في أمريكا وحدها. وبهذا فقد أحدث هذا الفيلم ثورة في السينما الأمريكية من الناحية التجارية، خالقاً لهوليوود فرصة الشروع فيما بعد بإنتاج أفلام أكثر أهمية وترفاً.. حيث فتحت الأبواب أمام الإنتاجات الضخمة والأجور الخيالية.

كانت السنوات العشر التي تبعت الحرب العالمية الأولى، بالنسبة للسينما الأمريكية سنوات رخاء وازدهار، وليست كذلك بالنسبة للسينما الأوروبية، لأسباب موضوعية أهمها حذف الأفلام الأجنبية من برامج عروض عشرين ألف صالة في الولايات المتحدة، هذا إضافة إلى أن الأفلام الأمريكية قد سيطرت في بقية أنحاء العالم على ٦٠٪ إلى ٩٠٪ من برامج العروض، كما وخصص مائتا مليون دولار سنوياً لإنتاج سينمائي تجاوز الـ ٨٠٠ فيلم، مما أدى طرح مليار ونصف من الدولارات للاستثمار إلى تحويل السينما إلى مشروع يشبه، بهذه الرساميل المخصصة له، أكبر الصناعات الأمريكية، كصناعة السيارات والفولاذ والبترول والسجائر. وسيطرت بعض الشركات الكبرى على الإنتاج والاستثمار والتوزيع العالمي أمثال: بارامونت، ولوي، وفوكس، ومترو، ويونيفيرسال، وربطتها علاقات قوية بالشركات المالية الكبرى في حي وول ستريت. هذه الشركات التي لم تعد تعتمد على المخرجين، بعد إخفاقات جريفيت في أفلامه الأخرى، ما بعد (مولد أمة)، بل على النجوم السينمائيين، فأصبح المنتجون هم أسياد الفيلم منذ ذلك الوقت، إذ سيطروا على الصلاحيات السينمائية كافة: كانتخاب موضوعات الأفلام، والنجوم، والتقنيين، وتنمية فكرة النص والموضوع، إلى غيره من العناصر السينمائية.

مع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، ظهر نظام النجوم في هوليوود، الذي استحوذ على نتاج هوليوود فيما بعد، بينما بقي المنتج في الظل. وبذلك احتل النجم واجهة هوليوود، وصار نظام النجوم أساس سيطرة هوليوود العالمية. هنا بدأت هوليوود تستقطب الكثير من السينمائيين في أوروبا والعالم، من فرنسا وألمانيا، والنمسا، والسويد، وغيرها من بلدان العالم، الذين عرفوا بأن العمل في هوليوود سيعطيهم الشهرة التي يريدون.

بعد أن نطقت السينما

ومع اكتشاف السينما الناطقة عام ١٩٢٩، بدا التردد الأمريكي والخوف واضحاً لدى المنتجين، من حرمان هوليوود من تواجدها الخارجي، هذا التردد الذي كان اقتصاديا في الأساس وليس تقنياً. فاتجهت هوليوود لإنتاج الأفلام الغنائية والاستعراضية، التي أخذت نصيباً من النجاح، في محاولة يائسة لتجاوز هذه الأزمة، إلا أن أرقام الإنتاج بدأت في التناقص. فبعد أن كانت السينما الأمريكية تنتج ما يقارب الألف فيلم في العام الواحد، بدأ الرقم يتناقص إلى النصف بعد ظهور السينما الناطقة.

هذا النقص في الأفلام الأمريكية، قابله نشاط إنتاجي في الدول الأوروبية التي احتكرت فيها أمريكا صالات العرض أيام السينما الصامتة. حيث بدأت جماهير تلك الدول تطالب بأفلام تتكلم لغتها. وقد نجحت هوليوود في تجاوز هذا الإشكال من خلال دبلجة الأفلام باللغات الأخرى، وإيجاد حلول أخرى، حيث لم يكن من الصعب على صناع الفيلم الأمريكي، إيجاد حلول لأية أزمة تعترض طريق تدفق ثرواتهم على مدى تاريخ هذه السينما العتيق، لهذا نحن ما نزال نعيش في زمن السينما الأمريكية.

السينما الأميركية سينما عريقة بكل المقاييس، لذا نتوقع أن يكون نقاشنا ساخناً بعد نقاط نوجزها في التالي:

يجب أن تكون للسينما عجلات إنتاج ومصانع وسوق، وعرض وطلب. وهذا قبل أن نهتم بقضية الموضوع أو الأفكار، هذا إذا أردنا أن تكون هناك سينما حقيقية. فالإنتاج أو رأس المال، في مجال السينما، لابد من أن يأخذ على عاتقه التعامل مع السينما كصناعة أولاً، قبل أن يتعامل معها كتجارة أو كفن.

إن وجود صالات العرض مسألة ضرورية لنجاح أي سينما، وأي عجلة إنتاج، لابد لها من سوق للتوزيع والتسويق. وهذا ما عرفناه عن السينما الأمريكية منذ بدأت، حيث أخذت على عاتقها، تكوين بنية أساسية، من معامل وورش ومختبرات، مسخرة تطور التكنولوجيا لمصلحة السينما وخدمتها.. وقبل كل هذا، كانت هناك صالات العرض السينمائي، التي . من كثرتها . تستطيع أن تغطي مصاريف الفيلم، بل وتأتي بالأرباح الخيالية للمنتج في أمريكا فقط، فكيف بتلك الأرباح الخيالية على مستوى العالم. وهو الأمر الذي جعل من السينما الأمريكية سينما مستقلة بذاتها، بمعنى أنها لا تعتمد تماماً على عروض الأفلام الخارجية.

إزدهار فن كتابة السيناريو.. فالسينما الأمريكية فتحت المجال لتناول مواضيع جديدة ومبتكرة، وأعطت حرية كاملة لكاتب السيناريو في تناول مواضيع متنوعة، مهما كانت الصعوبة في تنفيذها.. فقد اعتمدت على الورش والمعامل التي تقدم الجديد دائما في مجال الابتكار التقني.

السينما كاستثمار تحقق أرباحاً خيالية إذا آمن بها المنتج، فالمغامرون من المنتجين في السينما الأمريكية، لم ولن يبخلوا على أفلامهم بشيء.. إذ رصدوا ميزانيات بأرقام فلكية.. لأنهم يعلمون جيداً بأن ثمة أرباحاً طائلة ستجنيها أفلامهم.

السينما لديها ملكات الانتشار بدون الاعتماد على اللغة السائدة في العالم، فالانتشار الذي صاحب مسيرة السينما الأميركية، كان بمعزل عن اللغة، حيث كانت السينما صامتة.. فالفن الجيد مهما تكن لغته سيحضى باهتمام العالم.

أرى أن أي مقياس لأي تجربة أو تيار سينمائي في العالم، لا يجب أن يكون عرضة للمقارنة بمثله في السينما الأمريكية.. فهكذا مقارنة ليست في صالح الجميع، باعتبار

المكتبة السينمائية

المكتبة السينمائية
الكتاب: أفلام من الإمارات
المؤلف: تأليف جماعي
الناشر: المجمع الثقافي - الإمارات العربية المتحدة

''مغامرة الصورة التي نريدها غير مؤطَّرة.. صور مفتوحة على الهواء، وعلى الانكشاف. هي فقط مثل قنوات وثقوب تُسرِّب الأوكسجين إلى رئاتنا، ولا نبتغي من ورائها العيش الأبدي تحت الماء.

عندما يحتفي بنا الآخرون فلأنهم جميلون ويعشقون صورتنا.

لم يكن الرهان بتاتاً على مهرجان سينما، بل كان على أفلام إماراتية دائمة، وحاضرة ومؤثرة.''

هي بعض تلك الكلمات التي كانت في ''ذاكرة لا تتسع لصورة'' من قبل مدير مسابقة أفلام من الإمارات السيد مسعود أمر الله آل علي.

التجربة السينمائية فيما يخص حقل المسابقات التي تمتزج فيها الكثير من التجارب لمحبي الصورة وعاشقيها، والحديث لا يدور بطبيعة الحال عن درجة الاحترافية والخبرة في العرض، بل لتلك الأرواح التي تريد ملامسة الطيف الواقف خلف تلك الفكرة وذلك الألم، وربما تلك الضحكة.

تحوي الكراسة بين دفتيها الصغيرتين عناوين وإن لامست في مقاربتها المكانية الأفلام المشاركة وهي الإماراتية إلا أنها تعكس صورة حقيقة لا يمكن حصرها في ''الإمارات'' كمكان له تجربته التي لا تنفك في قواعد مشتركة كثيرة عن بقية التجارب الأخرى في المنطقة العربية وبالخصوص الخليجية ونستطيع القول بثقة وبالأخص التجارب البحرينية.

فالتحديات ''الجميلة'' أمام السينما الإماراتية هي من الفصول الأولى للكراسة والتي تناولها ''محمد رضا'' في استعراض مميّز ومبدع لم يُبعده عن النقد المباشر في عملية فنية مُحكمة تناول من خلالها التجارب المشاركة كعناوين عامة في عرضه للأفلام وتأثرها بالتلفاز أكثر من السينما، وتسليط الضوء على بعض التجارب أخذت حيزاً لا بأس به من النقد والتحليل سواء عند الحديث عن الأفلام الروائية المشاركة أو الأفلام التسجيلية.

وفي الفصل الذي يليه كان اللقاء المفتوح مع رئيس لجنة التحكيم السيد محمد مخلوف ثرياً بالملاحظات والثغرات التي يلحظ منها القارئ عناوين مشتركة للكثير من التجارب الشبابية سواء كانت في الإمارات أو البحرين، وبصورة عامة في الخليج بحكم الطبيعية التكوينية البصرية الموجودة وإنعكاسها على صياغة الصورة المقدمة.

ومن المسائل التي تم نقاشها مع رئيس لجنة التحكيم هي مكانة الموسيقى واختيارها المناسب في الفيلم، تناول الفكرة وطرحها عبر الصورة، وغيرها من المواضيع ذات العلاقة بالتركيبة الأساسية للفيلم.

ويبدو أن ''جرعة'' النقد والتحليل كانت ''أكبر'' و''مباشرة'' من لدن ''صلاح مرسيني'' في الفصل الثالث من الكراسة ''مسابقة أفلام من الإمارات ذاكرة لا تتسع لصورة واحدة''، إذ تناول فيه قراءة للإنتاج السمعي البصري في الإمارات المتحدة، بالإضافة إلى ''غياب'' المرجعيات البصرية السينمائية، ويقصد بها ''الأفلام الأمريكية، الهندية والمصرية'' من الأفلام المشاركة.

وعرّج في فصله الخاص على بعض التجارب التي رأى فيها مباشرة الخطاب وغياب الرمزية وهي من ضعف السينما لا قوتها.

وبصورة عامة كان فصل ''صلاح مرسيني'' مُكثفاً ومركزاً في تعليقه على الأفلام المشاركة سواء بالفكرة أو بالعرض المُنتخب لبعض الأفلام والحديث عنها.

وتتناول المواضيع الأخرى مقالات ورؤى كُتبت عن المسابقة في الصحف الإماراتية وبعض الصحف العربية، ومن تلك العناوين:

نحو أول فيلم إماراتي، تصنع الجدية ما لا تصنع الحرفة، سيادة التجريد وغياب المعالجات البصرية، والعديد من المقالات الأخرى التي تناولت بعض الأفلام سرداً وتحليلاً ونقداً.

الكراس بصورته العامة ''مادة مغذية'' لكل من يتحرك في دائرة ''عشق إنتاج الصورة'' أو حتى النظر لها، فالعديد من الأفكار والخطوط المضيئة مكتنزة في هذا الكراس الصغير، والذي إن بدا محصوراً في تجربة الأفلام الإماراتية إلا أن العشق المشترك للصورة تجده واضحاً وملموساً في هذا الكراس الصغير حجمه ''حجم صغير ١٣٨ صفحة''.

الكتاب: مخرجون واتجاهات في السينما العربية
المؤلف: سمير فريد
الناشر: نادي البحرين للسينما

يعتبر الكاتب والناقد سمير فريد من الكتاب القلائل الذين كرسوا تجربتهم النقدية والحياتية في متابعة السينما العربية، عبر الرصد والتحليل. وهو هنا في هذا الكتاب يشرع أحضانه بكثير من الحب تجاه السينما العربية الجديدة، بل إنه يهدي كتابه للمخرج الراحل (ماروان بغدادي) مما يدل على مدى هذا الحب الذي يكنه هذا الناقد المبدع للحركة السينمائية العربية التي تصارع في ظل ظروف صعبة. بل إن بعضها يحفر في الحجر كمحاولة منه لتأسيس صناعة سينمائية.

في مقدمة كتابه يتوقف الكاتب في لحظة يائسة ليقرأ تاريخ السينما العربية في قرن ليصل لنتيجة محبطة، وهي أن المجتمعات العربية التي ذهبت نحو حريتها الاجتماعية قد بدأت تتراجع بشكل مخيف، وكذلك الوضع الراهن للسينما. يقول سمير فريد: '' إن الوضع الراهن للسينما في العالم العربي مع نهاية العقد الأخير من القرن العشرين وضع مركب مثل وضع العالم العربي ذاته. فالمثيب يصبح حراماً مرة أخرى كما كان في بداية القرن، بل وصوت المرأة عورة... ويقول أيضاً: والدول العربية بما في ذلك مصر، لا تعتبر التراث السينمائي من التراث القومي، ولا تعتبر السينما مثل الفنون الأخرى التي تستحق الدعم، ولا يتم تدريسها من بين الفنون في المدارس والجامعات..'' بعد هذه المقدمة، يستعرض الكتاب بالنقد والتحليل العديد من التجارب السينمائية العربية، ويبدأ بالمخرج السوري محمد ملص في فيلمه الهام أحلام المدينة، أسامة محمد في فيلم نجوم النهار، دريد لحام في فيلم كفرون، رياض شيا في فيلم للجاه، ريمون بطرس في فيلم الطحالب و الترحال، سمير ذكري وفيلم تراب الغرباء، ودراسة مطولة عن المخرج السوري إلهام عبد اللطيف عبدالحميد بعنوان '' شاعر سينمائي كبير''، مارون بغدادي وأفلامه: بيروت بيروت، حروب صغيرة، رجل الإسراء، جان بول مارا، وخارج الحياة. جوسلين صعب وفيلم غزل البنات، راندة شهال وفيلم شاشات الرمال، زياد دويري وفيلم بيروت الغربية، نجدة أنزور وفيلم حكاية شرقية، بسام الذوادي وفيلم الحاجز، ناصر القطاري وفيلم السفراء، نوري بوزيد ورضا الباهي، فريد بوغدير في فيلم الحلفاوين، مفيدة اشلاتلي في فيلم صمت القصور، سهيل فارس في فيلم عسل ورماد، سهيل بن بركة في فيلم ألف يد ويد، عبدالرحمن تازي في فيلم ابن السبيل، فريدة بن اليزيد في فيلم باب على السماء، الجيلاني فرحاتي في فيلم شاطئ الأطفال الضائعين. في رؤيته لتجربة المخرج البحريني بسام الذوادي حول فيلم الحاجز، يقول الناقد سمير فريد: ''بسام الذوادي رائد في الثلاثين من عمره، والريادة هنا ليست في مجرد صنع أول فيلم روائي بحريني، فقد كان من الممكن أن يكون الفيلم أول فيلم روائي بحريني، ولكن عن رواية مصرية مثلاً، أو مسرحية جزائرية.. ولكن الريادة في الحاجز في التعبير عن واقع الحياة المعاصرة في البحرين، وهو ما يتطلب قدراً كبيراً من شجاعة الإقدام، وما يعبر عن أصالة الموهبة في نفس الوقت.

أفلام جديدة

إثنان من أجل المال: "Two for the Money"

تمثيل: آل بتشينو ، ماثيو ماكوناهي ، رينيه روسو ،اخراج: دي جي كاريسو.

يتمتع نجم كرة القدم السابق ''براندون لين'' (ماثيو ماكوناهي) بمقدرة غريبة على التنبؤ بنتائج المباريات وبسبب ذلك يتعرف على ''وولتر أبراهام'' (آل بتشينو) رئيس أحد أكبر مراكز الاستشارة الرياضية في البلاد. يتعاقد ''وولتر'' مع ''براندون'' ويقدمه للمجتمع الراقي في ''مانهاتن'' وتنشأ بين الاثنين علاقة أشبه بعلاقة الأب والابن ويستفيد ''وولتر'' من هذه العلاقة بتضخيم أرباحه. تسوء الأمور بين كل من ''براندون'' و''وولتر'' عندما تبدأ مقدرة ''براندون'' بالتلاشي. يتورط الاثنان في لعبة يحاول كل واحد منهما من خلالها السيطرة على الآخر ويجذب ذلك الصراع جميع الأشخاص المحيطين بهما بما في ذلك ''توني'' (رينيه روسو) زوجة ''وولتر''. والاس وجروميت، لعنة الأرنب : قطقُدكم ڤ أيُ: شومٌمٌ ذُوم طمْم-زفققىُڤ

تمثيل: بيتر ساليس ، هيلينا بونهام كارتر ، رالف فينيس ،اخراج: ستيف بوكس، نيك بارك. بل أيام من بدء مسابقة الخضراوات الضخمة يكتشف كلٌ من ''والاس'' المحب للجبن وكلبه الوفي ''غروميت'' وجود بعض العوائق حيث يبدأ وحش ضخم وغامض فجأةً بمهاجمة خضراوات البلدة ليلاً وأيضاً بمهاجمة مضيفة المنافسة الليدي ''توتنغتون''. يقرر ''فيكتور كوارترمين'' التخلص من الوحش ليتمكن من طلب الزواج من الليدي ''توتنغتون''. توافق الليدي ''توتنغتون'' على السماح لـ''فيكتور'' بملاحقة الوحش والتخلص منه ولكنها لا تدري نوايا ''فيكتور'' الخفية الأخرى.